هدي الرسول صلى الله عليه وسلم في الاعتكاف

كان هدي رسول الله ﷺ في الاعتكاف من أكمل الهدي، وأيسره، ومنه أنه كان يعتكف صائما، لما فيه من اجتماع أسباب تربية القلب بالإعراض عن الصوارف عن الطاعة ، أدْعى للإقبال على الله تعالى والتوجه إليه بانقطاع وإخبات ، ولذلك استحب السلف الجمع بين الصيام والاعتكاف ، حتى قال الإمام ابن القيم رحمه الله : ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطراً قط ، بل قالت عائشة : (لا اعتكاف إلا بصوم) أخرجه أبو داود (2473).

ولم يذكر الله سبحانه وتعالى الاعتكاف إلا مع الصوم ، ولا فعله رسول الله ﷺ إلا مع الصوم .

فالقول الراجح في الدليل الذي عليه جمهور السلف : أن الصوم شرط في الاعتكاف ، وهو الذي كان يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية. زاد المعاد (2/87،88).

وفي إطار الحديث عن هدي الرسول في الاعتكاف، نجد أنه ﷺ ، حافظ على الاعتكاف في العشر الأواخر ، كما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده . رواه البخاري (1921) ومسلم (117).
وفي العام الذي قبض فيه ﷺ (اعتكف عشرين يوماً) البخاري (1939) . أي العشر الأواسط والعشر الأواخر جميعاً.

وذلك لعدة أسباب :

أولها : أن جبريل عارضه القرآن في تلك السنة مرتين البخاري (4712) . فناسب أن يعتكف عشرين يوماً ، حتى يتمكن من معارضة القرآن كله مرتين .

ثانيها : أنه ﷺ أراد مضاعفة العمل الصالح ، والاستزادة من الطاعات ، لإحساسه ﷺ بدنو أجله كما فهم من قول الله تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) سورة النصر . فإن الله عز وجل أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالإكثار من التسبيح والاستغفار في آخر عمره ، وهكذا فعل ﷺ ، فقد كان يكثر في ركوعه وسجوده من قول: (سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي) يتأول القرآن . رواه البخاري (487) ومسلم (484).

ثالثها : أنه ﷺ فعل ذلك شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليه من الأعمال الصالحة من الجهاد والتعليم والصيام والقيام وما آتاه من الفضل من إنزال القرآن عليه ورفع ذكره وغير ذلك مما امتن الله تعالى به عليه .

وكان ﷺ يدخل معتكفه قبل غروب الشمس فإذا أراد مثلاً أن يعتكف العشر الأواسط دخل المعتكف قبل غروب الشمس من ليلة الحادي عشر ، وإذا أراد أن يعتكف العشر الأواخر دخل المعتكف قبل غروب الشمس من ليلة الحادي والعشرين .

كان ﷺ لا يعود مريضاً ، ولا يشهد جنازة ، وذلك من أجل التركيز والانقطاع الكلي لمناجاة الله عز وجل

أما ما ثبت في الصحيح من أنه ﷺ صلى الفجر ثم دخل معتكفه رواه البخاري (1928) ، ومسلم (1173) والترمذي (791) ، فإنما المقصود أنه دخل المكان الخاص في المسجد بعد صلاة الفجر ، فقد كان يعتكف في مكان مخصص لذلك ، كما ورد في صحيح مسلم أنه ﷺ اعتكف في قبة تركية . رواه مسلم (1167).

في خضم الحديث عن هدي الرسول والاعتكاف، كان ﷺ يخرج رأسه وهو معتكف في المسجد إلى عائشة رضي الله عنها وهي في حجرتها ، فتغسله وترجله ، وهي حائض ، كما جاء في الصحيحين . البخاري (1924) ، (1926) ومسلم (297) .

وفي مسند أحمد أنه كان يتكئ على باب غرفتها ، ثم يُخْرج رأسه ، فترجّله . أحمد (6/272).

وفي ذلك دليل على أن إخراج المعتكف بعض جسده من المعتكف لا بأس به ، كأن يخرج رجله أو رأسه . كما أن الحائض لو أدخلت يدها أو رجها مثلاً في المسجد فلا بأس ، لأن هذا لا يُعدّ دخولاً في المسجد .

ومما وقع له ﷺ في اعتكافه ما راوه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ، ثم دخل معتكفه ، وإنه أمر بخبائها فضرب ، وأمر غيرها من أزواج النبي ﷺ ، بخبائه فضرب ، فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر نظر فإذا الأخبية ، فقال : (آلبرَّ تُردْن ؟) فأمر بخبائه فقوض ، وترك الاعتكاف في شهر رمضان ، حتى اعتكف في العشر الأول من شوال البخاري (1928) ومسلم (1173) .

ومعنى قوله : (آلبرّ تردْن ؟) أي : هل الدافع لهذا العمل هو إرادة البر ، أو الغيرة والحرص على القرب من رسول الله ﷺ ؟

والأظهر والله أعلم أن اعتكافه ﷺ في شوال من تلك السنة بدأ بعد العيد ، أي في الثاني من شوال . ويحتمل أن يكون بدأ من يوم العيد ، فإن صح ذلك فهو دليل على أن الاعتكاف لا يشترط معه الصوم ، لأن يوم العيد لا يصام .

وفي مسألة هدي الرسول والاعتكاف، ومما وقع له ﷺ في اعتكافه ما رواه الشيخان أن صفية زوج النبي ﷺ جاءت تزوره في اعتكافه في المسجد ، في العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت تنقلب ، فقام النبي ﷺ معها يقلبها ، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة ، مر رجلان من الأنصار ، فسلّما على رسول الله ﷺ ، فقال لهما النبي ﷺ : (على رسلكما ، إنما هي صفية بنت حيي) الحديث.

فمن شدة حرصه ﷺ ، على صدق إيمان هذين الأنصاريَّيْن ، وخشية أن يلقى الشيطان في قلوبهما شيئاً ، فيشكَّا في الرسول ﷺ ، فيكون ذلك كفراً ، أو يشتغلا بدفع هذه الوسوسة ، بيّن ﷺ الأمر ، وقطع الشك ، ودفع الوسواس ، فأخبرهما أنها صفية رضي الله عنها وهي زوجته.

ومن هديه ﷺ في الاعتكاف، فكان إذا أراد أن يعتكف وُضع له سريره وفراشه في مسجده ﷺ ، وبالتحديد وراء أسطوانة التوبة كما جاء في الحديث عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ (أنه كان إذا اعتكف طرح له فراشه ، أو يوضع له سريره وراء أسطوانة التوبة) رواه ابن ماجه 1/564 .

كان ﷺ يحافظ على نظافته ، إذْ كان يخرج رأسه إلى حجرة عائشة رضي الله عنها لكي ترجّل له شعر رأسه

وكان النبي ﷺ يضرب له خباء مثل هيئة الخيمة ، فيمكث فيه غير أوقات الصلاة حتى تتم الخلوة له بصورة واقعية ، وكان ذلك في المسجد ، ومن المتوقع أن يضرب ذلك الخباء على فراشه أو سريره ، وذلك كما في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان ، فكنت أضرب له خباء ، فيصلي الصبح ، ثم يدخله .. الحديث) رواه البخاري، وانظر: 4/810 فتح الباري .

وكان دائم المكث في المسجد لا يخرج منه إلا لحاجة الإنسان ، من بول أو غائط ، وذلك لحديث عائشة رضي الله عنها حين قالت : (.. وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة إذا كان معتكفاً) رواه البخاري 4/ 808 فتح الباري .
وكان ﷺ يؤتي إليه بطعامه وشرابه إلى معتكفه كما أراد ذلك سالم بقوله : (أما طعامه وشرابه فكان يؤتى به إليه في معتكفه) ص 75 .

وكان ﷺ يحافظ على نظافته ، إذْ كان يخرج رأسه إلى حجرة عائشة رضي الله عنها لكي ترجّل له شعر رأسه ، ففي الحديث عن عروة عنها رضي الله عنها (أنها كانت ترجّل النبي ﷺ وهي حائض ، وهو معتكف في المسجد ، وهي في حجرتها ، يناولها رأسه) رواه البخاري 4/807 فتح الباري .

قال ابن حجر: وفي الحديث جواز التنظيف والتطيب والغسل والحلق والتزين إلحاقاً بالترجل ، والجمهور على أنه لا يكره فيه إلا ما يكره في المسجد (4/807 فتح الباري).

وكان ﷺ لا يعود مريضاً ، ولا يشهد جنازة ، وذلك من أجل التركيز والانقطاع الكلي لمناجاة الله عز وجل ، ففي الحديث عن عائشة أنها قالت : (كان النبي ﷺ يمرّ بالمريض وهو معتكف ، فيمرّ كما هو ولا يُعرِّج يسأل عنه) وأيضا عن عروة أنها قالت : (السنّة على المعتكف أن لا يعود مريضاً ، ولا يشهد جنازة ، ولا يمس امرأة ، ولا يباشرها ، ولا يخرج لحاجة إلا لما لا بد منه ، ولا اعتكاف إلا بصوم ، ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع) رواه أبو داود 2/333 .

وكان أزواجه ﷺ يزرْنه في معتكفه ، وحدث أنه خرج ليوصل إحداهن إلى منزلها ، وكان ذلك لحاجة إذ كان الوقت ليلاً ، وذلك كما جاء في الحديث السابق .فرأى ﷺ أن خروجه معها رضي الله عنها أمر لا بد منه في ذلك الليل ، فخرج معها من معتكفه ، ليوصلها إلى بيتها .

وخلاصة القول : أن هديه ﷺ في اعتكاف كان يتسم بالاجتهاد ، فقد كان جل وقته مكث في المسجد ، وإقبال على طاعة الله عز وجل ، وترقب لليلة القدر .